الزّلّاقـــــــة
يـومٌ مـن أيـام اللّه
جـلَّ فـي عـلاه

alzzllaq

One of the days of God glorify

أ. م. د. محمد أمين سليم الجبوري

Muhammad Amin Salim al-Jubouri

كلية التربية للبنات/ الجامعة العراقية

mohammedamein@yahoo.com

٠٧٧٢٦٦٧٤٧٣٩

الملخص

يوم الزلاقة يوم من أيام الله جل في علاه ونقول هناك رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وما حصل لهم النصر والتمكين إلا بصدقهم في جنديتهم وعبوديتهم لرب العالمين وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لم يطع الكافرين بل حاربهم وكذلك موقفه مع ملوك الطوائف المنافقين الذين وآلوا الكافرين وكان مطيعاً لشرع رب العالمين بما أفتى به إجماع علماء المسلمين من المغاربة والشرقيين بتوحيد المسلمين من الأندلسيين والمغاربة تحت قيادة المرابطين.

الكلمات المفتاحية: الزلاقة، ايام الله.

Abstract

The Day of Zalqa is one of the days of God Almighty and we say there are men who believed what they pledged to God and victory and empowerment did not happen to them except by their sincerity in their soldiers and their servitude to the Lord of the worlds. And he was obedient to the law of the Lord of the worlds according to the fatwa issued by the consensus of Muslim scholars from the Maghreb and the East to unite the Muslims from the Andalusians and the Moroccans under the leadership of the Almoravids.

Keywords: Zalqa Days of God.

المقدمـة

الحمد لله حمد الشاكرين، الحمد لله رب العالمين، الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين إصطفى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وإله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين وسلم تسليما.

وبعد: فإن هذا البحث عن رجل قلّما يجود علينا التاريخ بمثله: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا} (الاحزاب/ ٢٣).

هذا الرجل الرباني إسمه مقرون بالقرن الخامس الهجري حيث وَلِد في بدايته وقضى نحبه في نهايته- هذا القائد المُلَهم إقترن إسمه بدولة المرابطين هناك بالمغرب العربي والأندلس، إقترن إسمه مع ملوك الطوائف الذين كان معظهم يوالي الكافرين وبذلك ينسلخوا من الدين، وإذا به يُرجعهم الى رشدهم وحقيقة دينهم ويوحدهم ضد النصارى الكافرين المحتلين، ويقودهم مع إخوانهم المرابطين في يوم الزلاقة الرهيب، الذي هو يوم من أيام الله جل في علاه، هذا الرجل والرجال قليل إقترن إسمه بالمعتمد بن عباد الذي قاد الأندلسيين في معركة الزلاقة وأبلى فيها البلاء الحسن، ولكن بعد الزلاقة عاد هذا وملوك الطوائف في خصوماتهم فيما بينهم مستعينين بالنصارى على إخوانهم في الدين، مما إضطر القائد الرباني يوسف بن تاشفين بعد فتوى وإجماع علماء المسلمين بظم الأندلس الى دولة المرابطين بالقوة وبمحاربة من شذ من ملوك الطوائف الذين فضلوا موالاة الكافرين على إخوّة العرب المسلمين لذلك حارب هؤلاء وإعتقلهم، حتى يحصل النصر والتمكين للمسلمين وجمع المغرابة مع الأندلسيين تحت قيادة دولة المرابطين، هذا ما فعله القائد الرباني الزاهد ابن تاشفين في ذلك المكان وذلك

الزمان، في الوقت الذي كان فيه المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين يئن من وطئة وإحتلال الصليبيين بعدما سلمه العبيديون حتى هيئ الله جل في علاه الزنكيين والايوبين بمثل المرابطين، ونور الدين وصلاح الدين بمثل يوسف بن تاشفين الذين حررا وفتحوا القدس الشريف وإنتصروا على الصليبين في كثير من المعارك وبخاصة في معركة حطين بقيادة صلاح الدين التي كانت كمعركة الزلاقة بقيادة إبن تاشفين رحمهم الله أجمعين وبذلك كانوا قدوة حسنة حيث نجد أن قادة المرابطين يقودون المعارك بأنفسهم قُتِلَ المربي الأول للمرابطين عبد الله بن ياسين في ساحات الوغى، وهو مجاهد في سبيل الله، وخلفه القائد يحيى بن عمر واستمر في جهاده حتى لقى الله شهيداً في سبيله، وجاء من بعدهم أبو بكر بن عمر الذي توغل في الصحراء الكبرى بجهاده حتى قضى نحبه، وجاء دور قائد التمكين لدولة المرابطين يوسف بن تاشفين الذي كان يقود الحرس الخاص الذي أعده لإنتزاع النصر من الأعداء في ساعات الوغى وعندما يحمى الوطيس فيندفع بجواده الى قلب المعركة ولا يخيبه الله جل في علاه بالنصر لصدقه وبذلك ضربوا أمثلة رائعة لأنهم يمثلون الرسول الأعظم محمد ﷺ { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} (الاحزاب/ ٢١).

ويتكون هذا البحث من ثلاث مباحث تبين لنا من هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي وحد الله تعالى على يديه الاندلسيين مع المرابطين للجهاد واعلاء كلمة الدين في يوم الزلاقة المبين.

والحمد لله رب العالمين.

تمهيـد

أ- العالم في زمن ظهور دولة المرابطين:

كان العام الاسلامي مجزأ عند قيام دولة المرابطين، ملوك الطوائف في بلاد الاندلس، واستطاع السلاجقة أن يطهروا العراق من بني بويه، والعبيديون حكموا مصر، وبنوا حماد في المغرب الاوسط، والمعز بن باديس وأحفاده في المهدية. اما المرابطون فتوسعوا وشملت دولتهم اجزاء شاسعة من شمال افريقية وضربت جذورها في الصحراء حتى نهر النيجر والسنغال، فرفعوا راية الإسلام في تلك الاماكن البعيدة، أما المشرق الاسلامي فكان في ظرف سياسي حَرِج وصعب قاسٍ، حيث أمرُ الخلافة في بغداد مهتز ومعرض للخطر والخليفة العباسي لا يملك من أمر الخلافة شيئا وكان الامر كله بيد البويهيون، ومن بعدهم السلاجقة، أما العبيدون في مصر فتحالفوا مع الافرنج من اجل مصالحهم وأطماعهم أما في بلاد الشام فقيض الله الزنكيين والايوبيين الذين قاموا بدور عظيم في القضاء على النصارى والذين والوهم وحرروا بيت المقدس من ايدي الصليبيين الغاصبين، وهيأ الله للغرب الإسلامي والأندلس دولة المرابطين لتكون سدا منيعا ضد أطماع النصارى في الأندلس ولتحمي الشمال الافريقي من غارات واطماع النصارى.

وأعز الله الأمة بالمرابطين في زمن عصيب، ورفع الله بهم لواء الإسلام في المغرب والأندلس.

ب- تكالب النصارى على المسلمين وأطماع الفونسو لتوسعية:

عندما سقطت طليطلة بيد الفونسو، أخذ اللعين يضغط على ممالك المسلمين الكبرى المجاورة له أي مملكتي بطليوس وأشبيلية، فأرسل إلى المتوكل بن الافطس صاحب بطليوس يطلب منه أن يسلم إليه القلاع والحصون المجاورة، وضعف المسلمون أمام هذه الضربات الماكرة، وأصبح سقوط الممالك قاب قوسين أو أدنى، وظل حكام الأندلس مع وجود الخطر الصليبي منغمسين في ترفهم وخلافاتهم وفسادهم يحابون أنفسهم ويحالفون ويوالون النصارى ضدا خوانهم، ويؤدون لهم الجزية مقابل إبقائهم على عروشهم فتعساً لهم، واستخدم ملوك الطوائف المرتزقة من النصارى لحماية أنفسهم وكان الحال بين ملوك الطوائف من التنافس والتدابر والتقاطع والتحاسد مالم يكن بين الضرائر المترفات.

المبحث الأول
القائد الرباني يوسف بن تاشفين
(٤٠٠-٥٠٠هـ/ ١٠٠٩-١١٠٦م)

تمهيد:

المراحل التي مرت بها دولة المرابطين في فقه الدعوه إلى الله جل في علاه ابتداءا من الامام ابن ياسين حيث انه نجح نجاحا عظيما في مراحل التعريف والتكوين والتنفيذ، واستشهد رحمه الله في مرحلة التنفيذ وتولى القيادة من بعده في هذه المرحلة أبو بكر بن عمر الذي سار على المنهج نفسه الذي رسمه أبن ياسين رحمه الله.

واستمر في فتح مدن المغرب، إلا أنه ترك نصف جيش المرابطين لابن عمه يوسف بن تاشفين ودخل بالباقي نحو الجنوب داعيا ومجاهدا ومصلحا، واستمر في فتوحاته حتى استشهد- رحمه الله- وتولى الامر بالكلية من بعده القائد يوسف بن تاشفين الذي انهى مرحلة التنفيذ وانتقل إلى مرحلة التمكين[1].

اسمه ونسبه:

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي، وامه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقين، وكانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجه، واحتفظت بالرئاسه منذ أن جعلها الامام ابن ياسين فيها بعد وفاة الامير يحيى بن ابراهيم الجدالي، فنما ونشأ عزيزا كريما في قومه قال عنه المؤرخون (خُلِقَ للزعامة)[2] كان يوسف بن تاشفين أسمر اللون، معتدل القامه، نحيف الجسم، خفيف

(١) محمد بن علي الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، (دمشق، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص٦٧.

(٢) يوسف اشباخ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان،

العارضين، رقيق الصوت، اكحل العينين، اقنى الانف، له وقره تبلغ شحمة الاذن، مقرون الحاجبين، أجعد الشعر كان يجمع بين جمال الطلعة وجمال الجسم، وبين ابدع المواهب[1]، كان بطلا شجاعا نجدا حاذقاً، جواداً كريماً، زاهداً في الدنيا، عادلا متورعا، متقشفا، لباسه الصوف وطعامه خبز الشعير، ولحوم الابل والبانها، وكان عزيز النفس كثير الخوف من الله جل في علاه كان يحب الصفح والعفو عن الذنوب مهما كبرت، ما عدا الذين يرتكبون الخيانه في حق الدين وموالاة الاعداء الكافرين فلا مجال للعفو عنهم لان المولاة رده كما أعتبرها رب العزة. {... وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (المائدة/ ٥١) رتبته الأحداث وصاغت من شخصيته قائدا فذا ،وبرهنت الايام على أن له القدره على فهم واقعه، وكان قادرا على النهوض بقومه وشعبه نحو حياه اسلاميه حضاريه أفضل[2].

المطلب الأول: يوسف بن تاشفين ودوله المرابطين

تلقى يوسف بن تاشفين تعاليمه الاوليه في قلب الصحراء من افواه المحدثين والفقهاء، ونما وترعرع وتربى على تعاليم الامام الفقيه أبن ياسين ونبغ في فنون رجال الحرب، وفي السياسة الشرعية التي تتلمذ على أيدي الفقهاء فيها، وقام بها خير قيام كما سنرى بأذن الله تعالى.

إنه تزوج من زينب النِفرويه بعد أن طلقها ابن عمه ابو بكر بن عمر عندما عزم على دخول الصحراء مجاهداً داعياً مصلحاً، فقال لها انت إمرأة جميلة بضه، لاطاقه لك على

القاهرة، ص٦٥.

(١) سلامه محمد سلمان الهرفي، دولة المرابطين، دار الندوة (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص٣٦.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت ٧١٠هـ)، الروض المعطار في خبر الاقطار، ت: بروفنمال، القاهرة، ١٩٣٧م، ص٨٧.

جو الصحراء وحرارتها، واني مطلقك فإذا انقضت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين {... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الحشر/ ٩) يا له من إيثار يذكّرنا بإيثار أصحاب الرسول محمد ﷺ رضي الله عنهم اجمعين من الأنصار فكيف لا ينصرهم الله سبحانه وتعالى إذا كانت هذه صفاتهم.

وتزوجها يوسف بن تاشفين بعد تمام عدتها، وكانت زينب بنت إسحاق مشهوره بالجمال والرئاسة، بارعة الحسن، حازمه لبيبه ذات عقل رصين ورأي سديد ومعرفة بإدارة الامور، فكانت نعم الزوجة المعينة لزوجها وقد مدحت كتب التاريخ هذه المرأة واعتبرتها من خيرةِ نساء دولة المرابطين وتوفيت رحمها الله سنه ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م.

وتزوج الامير يوسف بن تاشفين من سيده اندلسيه تدعى قمر، ولا تذكر كتب التاريخ عنها شيئا، ويقال: هي التي أنجبت الأمير علي ولي العهد.

وتزوج يوسف بن تاشفين أمراةٌ تسمى عائشة وانجبت له الامير محمد الذي نسب اليها فصار يدعى محمد بن عائشة. ورزق يوسف مجموعة من الذكور والإناث يكبرهم تميم الذي توفى غداة معركة الزلاقة المشهورة وكان يومها واليا على سبته، وعلي الذي تولى الإمارة بعده وصار والي الأندلس والمغرب، وإبراهيم ومحمد اللذين كانا من القادة البارزين مع والدهم، ورزق ابنتان هما كونه ورقيه[1].

المراحل العسكرية التي مر بها يوسف بن تاشفين في جيش المرابطين (٤٤٨- ٤٥٢هـ/ ١٠٥٦- ١٠٦٥م)

كان في هذه المرحلة مجرد قائد من قواد المرابطين يتلقى الأوامر وينفذها بكل نجاح.

(١) دولة المرابطين، ص٣٨.

وكانت هذه المرحلة غنيه بالتجارب والخيرات التي شحذت ذهنه واهلته للمرحلة التالية وكأن ما كانت ممارسه للسلطة، والاطلاع على خفايا دون تحمل المسؤولية، استطاع بعدها تسلم الإمارة والقيام بكل الامور التي وكلت اليه بكل همة ونشاط دون تردد، وقاد المرابطين إلى النصر في ميادين الجهاد والعزة والكرامة والشرف.

ولقد ابلى يوسف بن تاشفين في معركة الواحات (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦) التي كان فيها قائد لمقدمة جيش المرابطين المهاجم، وبعد فتح جلماسه، عينه ابن عمه الامير أبو بكر واليا عليها فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها، ثم غزا بلاد جزوله وفتح ماسه ثم سار إلى تارودانت قاعدة بلاد السوس وفتحها، وكان بها طائفة من انصار علي بن عبد الله البجلي وتحولوا إلى انصاره[1].

وبعد ذلك جاء دور مدينة أغمات، كانت مدينة مزدهرة حضاريا إذ كانت إحدى مراكز النصرانية القديمة ومقر للبربر المتهودين وكان يحكمها لقوط بن علي المغراوي. فدكها وفتحها سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م وبعدها سار المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين إلى الدولة الكافرة الملحدة برغواطة ونشبت بين الطرفين معارك طاحنة جرح خلالها الإمام ابن ياسين بجراح بالغة توفى على اثرها رحمه الله سنه ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م.

كان استشهاد الإمام الفقيه عبد الله بن ياسين البداية الاولى في دفع يوسف بن تاشفين إلى رئاسة الدوله الناشئة.

حيث ان جانب الامامة يغلب جانب الإمارة في عهد عبد الله بن ياسين، وبعد وفاته تولى ابو بكر بن عمر، فرجح جانب الامارة على جانب الامامة واخذت الدولة الناشئة

(١) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، (ت ٨٠٨هـ)، العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الاعلمي (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ٦/ ١٨٥.

تتحول إلى طابع سياسي جديد، ومرت بظروف تتطلب قادة ورجال من طراز يوسف بن تاشفين وعندما دخل ابو بكر بن عمر بجيوشه إلى الصحراء أناب ابن عمه بن تاشفين على المغرب، ظهرت خلالها مواهب يوسف بن تاشفين العسكرية والإدارية والتنظيمية والدعوية والحركية ورضي الناس بزعامته وبدأ بتأسس الدولة الناشئة بالحزم والعلم والجد والبذل والعطاء والمثابرة.

وعندما رجع ابو بكر بن عمر من الصحراء جمع اشياخ المرابطين من لمتونه واعيان الدولة، والكتاب والشهود ،وأشهدهم عل نفسه بالتخلي لابن عمه يوسف بن تاشقين عن الامارة[1].

وعلل الأمير أبو بكر هذا التنازل بأن ليوسف بن تاشفين الكفاءة للقيادة ولدينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وسداد رأيه وورعه، وأوصاه بالوصية التالية: (يا يوسف إني قد وليتك هذا الامر واني مسؤول عنه فاتق الله في المسلمين، واعتقني واعتق نفسك من النار ولا تضيع من امر رعيتك شيئا فإنك مسؤول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتي عليك وعليهم)[2].

ومع الأسف يحلو لبعض المؤرخين ان يفسر هذا الإيثار والتنازل عن الملك خشية الامير ابو بكر عمر من سطوه يوسف بن تاشفين، وسيرة الرجلين من التقوى والورع تنافي ادعاهم الباطل[3].

المطلب الثاني: فتح المغرب الأقصى الشمالي ٤٥٤هـ-٤٧٧هـ من بل المرابطين:

(١) الروض المعطار، ص٨٦.

(٢) دولة المرابطين، ص٧١.

(٣) الروض المعطار، ص٩١؛ ابن خلدون، العبر، ٦/ ١٨٥ .

تحرك يوسف بن تاشفين نحو المغرب الشمالي لينتزعه من ايدي الزناتيين، واستخدم من اجل تحقيق هذا الهدف المنشود وإرسال الجيوش للقضاء غلى جيوش المخالفين مستفيدا من الخلافات السياسية بين قادة المدن فحالف بعضها من اجل قتال الباقي، واستطاع أن يدخل مدينة فآس صلحا عام ٤٥٥هـ، لكن تمرد اهلها عليه وبعدها استطاع أن يخمد جميع الثورات التي قامت ضده، حتى تم له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام ٤٦٠هـ/ ١٥٦٧م وأعاد فتح فاس عنوه بحصار ضربه عليها. بجيش قوامه مئه ألف مقاتل سنه ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م فقضى على جميع منافسيه هناك، وشرع بعدها ببناء المساجد والفنادق واصلح الاسواق وخرج من فاس سنة ٤٦٣هـ متوجها إلى حصون وطاط من بلاد طنجة واستولى عليها.

لقب الإمارة ليوسف بن تاشفين:

عندما حقق يوسف بن تاشفين هذه الانتصارات، دعا شيوخ وامراء المغرب من قابل وزناته ومصموده وغماره، واكرمهم وبذل لهم العطاء واحسنَ اليهم لذلك بايعوه على الامارة وخرج بهم يطوف في اقاليم المغرب العربي يتابع الامراء ويحاسب الولاة المقصرين ويدفع المظالم فهابته النفوس. واقتنعت انها امام رجل عبقري فذ من طراز قليل وتهيأ يوسف بن تاشقين أن جهز جيشا قوامه اثنى عشر الف فارس مرابط وعشرين الفا من سائر القبائل.

وغزا بعدها مدينه تكرور ولم تعمر بعد ذلك، ثم رجع بجيوشه نحو وهران ووادي التلف حتى دخل مدينه الجزائر وتوقف عند حدود مملكة بجايه التي يحكمها بنو حماد من صنهاجه[1].

(١) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٧٥.

وبنى الجامع الكبير في مدينه الجزائر الذي لايزال قائما إلى اليوم وعاد إلى مراكش عام ٤٥٧هـ/ ١٠٨١م وبذلك توحد المغرب الاقصى بعد جهاد استمر ثلاثين عاما، واصبحت دولة المرابطين في مرحلة التمكين الفعلية، وفي عام ٤٧٦هـ وجه الامير يوسف بن تاشفين أبنه المعز على رأس جيش إلى سبته لفتحها اذ كانت المدينة الوحيدة التي لم تخضع له، كان يحكمها بعد الحاجب بن سكوت ابنه ضياء الدولة يحيى فحاصرها المعز براً وبحراً ودارت معركة بحرية انتهت، وفي نهاية المطاف استطاع المرابطون أن يفتحوا سبته وقُتلَ ضياء الدولة وكان ذلك في سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م وبذلك توحد المغرب الاقصى كله واصبحت الدولة المرابطة قوة لا يستهان بها[١].

وبالتالي تشكل خطرا على النصارى في الأندلس، وملجأ وحصناً حصيناً للمسلمين في بلاد الأندلس، حيث ان النصارى استفحل امرهم وخطرهم في الاندلس بعد قيام دويلات هزيلة في كل مدينة وما يسمى بدول الملوك ووصلت إلى ثلاث وعشرين دويلة تناحرت وتحاربت فيما بينها وعرف حكامها بملوك الطوائف. وتلقبوا بالألقاب الخلافة العباسية كالمأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل إلى غير ذلك من الالقاب، ووصف هذه الحالة المشينة المريضة الشاعر الاندلسي أبوعلي الحسن بن رشيق[٢]:

مما يزهدني في ارض أندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضدِ
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

لقد آلت أوضاع الاندلس إلى اسوء حال، واصبحت لاحول ولاقوة لها، هذا ماشجع النصارى على توجيه ضربات قاتلة للمسلمين تهدف إلى طردهم من اسبانيا

(١) محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١١١.
(٢) دولة المرابطين ص٥٩.

والبرتغال بدافع الحقد الصليبي القومي والديني، واطلقوا عليها حرب الاسترداد فاضطر أهل الأندلس طلب العون من المرابطين[1].

حيث قَبْلُ ذلك اخذ ملوك الطوائف يتحالفون مع الفونسو ملك قشتالة، من ذلك ارسل ابن عباد سفيره ووزيره البارع ابن عمار إلى عاصمة قشتالة يومئذ وتحالف مع الفونسو، وتعهد ملك قشتالة بمعاونة امير اشبيلية بالجند والمرتزقة ضد جميع المسلمين، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك ان يدفع إلى ملك قشتالة جزية كبيرة، انظر إلى سوء الحال اصبح المسلمون هم الذين يدفعون الجزية بدل ا ن كانوا يؤخذنها وكذلك تعهد ابن عباد بان لايعترض على مشروع الفونسو في احتلال طليطلة وهكذا ضحَّى ابن عباد بمعقل المسلمين اسبانيا المسلمة، وفي ٢٧ من المحرم عام ٤٧٨هـ، ٢٥/ أيار/ ١٠٨٥ سقطت طليطلة ودخلت بذلك إلى حظيرة النصرانية بعد ان حكمها المسلمون ثلاثمئة واثنين وسبعين عاما، تأثر المسلمون بسقوط طليطلة تأثراً عميقا، وتفرجت قريحة الشعراء في استثارة الهمم والتحريض على الجهاد من ذلك قول ابن عسال الطليطلي:

يـااهـل أنـدلـس حـشـو مطيئكم ... فـما المـقـام بهـا إلامـن الـغـلـطِ
الـثـوب ينسلُ مـن إطـرافـه وارى ... ثـوب الجزيرة منسولاً من الوسطِ
ونـحـن بـين عـدوٍ لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيـاتِ في سِقْطِ

وندم ابن عباد على فعلته خصوصاً عندما رأى الفونسو يتوسع في ضم ممالك المسلمين إليه وأيقن أن الدائرة علية قادمة، واجتمع أمراء المسلمين عندما رأوا أن شبح السقوط ماثلا أمام أعينهم فاتحدوا لأول مرة، والاستنجاد بإخوانهم المرابطين واستدعائهم إلى الأندلس[2].

(١) دوة المرابطين، ص٥٩.

(٢) ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الاعيان وانباء الزمان،

المطلب الثالث: المعتمد بن عباد (٤٣١ - ٤٨٨هـ):

اسمه: ابو القاسم محمد بن عبد الملك المعتضد بالله أبي عمرو، عبّاد بن الظافر بالله ابي القاسم، قاضي اشبيلية ثم ملكها، محمد بن إسماعيل بن قريش اللخمي قيل: هو من ذرية النعمان بن المنذر صاحب الحيرة[١].

أصـله:

الاصل من الشام من بلد العريش، دخل أبو الوليد اسماعيل بن قريش الى الأندلس، ثم برع في الفقه، وولي فصار قاضياً، ثم تملك مدة وقام من بعده ابنه المعتضد، فساس المملكة باشبيلية، وبايعوه بالملك في سنة ثلاث وثلاثين واربع مئة[٢].

صــفة أبيه المعتضد:

كان شهماً صارماً داهيةً، ذبح جماعة من أعيان ابيه وصادرهم وعلا شأنه ودانت له الامم، وكانوا يشبهونه بالمنصور العباسي، رام ابنه اسماعيل اغتياله، فأخذه، وضرب عنقه وعهد الى ابنه المعتمد[٣].

صـفة المعتمد بن عبــاد:

كان فارساً، شجاعاً، عالماً أديباً، ذكياً، شاعراً، محسناً، جواداً، ممدوحاً، كبير الشأن، خيراً من أبيه المعتضد. كان اندى الملوك راحةً، وأرحبهم ساحةً، كان باب محط الرجال، وكعبة الآمال[٤].

تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)، ٧/ ١١.

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ١٠/ ٢٥٠، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥/ ٣٠.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٨-٥٩.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢/ ١٤٧.

(٤) ابن خلكان، ٥/ ٢٤، الذهبي، سير، ١٩/ ٦٠.

ملكهُ وأولادهُ:

ملك المعتمد من مسورات البلاد مئتي مسور، وولد له مئة وثلاثة وسبعون ولداً، وكان لمطبخه في اليوم ثمانية قناطير من اللحم وكتابه ثمانية عشر، وهو ابرز ملوك الطوائف. ملك اشبيلة وغلب على قرطبة سنة (٤٧١ هـ)، واخرج منها ابن عكاشة[١].

المبحث الثاني
الفونسو قائد الصليبين في الأندلس

المطلب الأول: الفونس والمعتمد بن عباد:

لقد وقع المعتمد بن عباد في اخطاء كثيرة كما اشرنا حيث تعاهد مع الفونس ضد اخوانه المسلمين في طليطلة مقابل ان يسمح له الفونس بأخذ ممالك من حوله؛ الا ان النصارى لا عهود لهم ولا مواثيق فاراد الفونسو ان يجد مبررا لضرب الحصار على اشبيلية واحتلال قرطبة فطلب من المعتمد حصونا وقرى الموت، ومارس الفونس مع المعتمد انواعا من الاذلال والتجني ليخرج المعتمد عن طوره ويلغي الاتفاقية الهزيلة بين الطرفين، ويجد الفونس والنصارى مايبرر افعاله الانتقامية والوحشية.

فطلب الفونس من المعتمد ان يسمح لزوجته القمطجية ان تلد في جامع قرطبة بناء على نصيحة الاساقفة، لان الطرف الغربي من المسجد كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله ان تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضلة موقع الكنيسة المزعوم، وارسل اليه بعثه من خمسمئة فارس برئاسه اليهودي ابن ساليب لأخذ الجزية وتجرأ السفير، وساء أدبه ان كان له أدب، وخرج على العرف الدبلوماسي، واغلظ بالقول للمعتمد وقال: (لا تعتقدوني بسيطا لا أقبل مثل هذه

---

(١) الذهبي، السير، ١٩/ ٦٣.

العملة المزيفة، لا أخذ الا الذهب الصافي، السنة القادمة ستكون مدنا[1]، وهنا أخذت المعتمد بن عباد النخوة العربية الاسلامية، وصلب اليهودي وقتل البعثة، وبذلك يكون عدو الله الفونسو قد حصل على ما يريد فلما عرف ذلك اقسم بآلهته ليغزون المعتمد بن عباد في أشبيلية.

وحرك جيشه نحو غرب الاندلس، فدمر كل القرى والامصار التي في طريقه نحو اشبيلة، وفعل كل ما بدا له من إجرام من سبي وقتل وحرق حتى وصل البحر اقصى جنوب الأندلس، وادخل قوائم فرسه في البحر قائلاً: (هذا آخر بلاد الاندلس قد وطئته).

المطلب الثاني: رسالة الفونسو إلى الامير يوسف بن تاشفين

ومن هنا ازداد تجبرا وتكبّراً، وارسل إلى يوسف بن تاشفين، وقال فيها: (أما بعد فلا خفاء على ذي عينين أنك اميرالمسلمين بل الملة الاسلامية، كما انا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤوساكم بالأندلس من التخاذل والتوكل، والاهمال للرعية والاخلاد إلى الراحة، وانا اسومهم الخسف فاضرب الديار واهتك الأستار، واقتل الشبان وأسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم ان امكنك معرفة هذا، وانتم تعتقدون ان الله فرض على واحد منكم عشرة منا،وان قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد ان الله اظفرنا بكم واعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعا ولا تستطيعون اقناعا، وبلغنا عنك وانك في الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدري أكان الجبن يطغى بك ام التكذيب بما انزل عليك، فان كنت لا تسطيع الجواز فابعث إلى ما عندك من المراكب نجوز إليك، انا ننازلك في أحب البقاع إليك، فأن غلبتني فهي نعمة شملت بين يديك،

(١) دولة المرابطين ص٦٦.

وان غلبتك كانت لي اليد العليا عليك واستكملت الإمارة، والله يتم الإرادة[1].

فكان رد يوسف بن تاشفين- رحمه الله- على ظهر الكتاب ذاته: (ما ترى لا ما تسمع) ان شاء الله تعالى وأردف يقول:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم[2]

وقالوا: واكتفى ابن تاشفين ان يكتب في ظهر الرسالة (الذي يكون ستراه)[3]

وعاد الفونسو المغرور المتكبر إلى اشبيلية حيث التقى بجيشه الاخر امام قصر المعتمد بن عباد بضفه النهر، وحاصر المدينة ثلاثة ايام وكتب إلى المعتمد بن عباد ان يرسل اليه مروحة يدوية لطرد الذباب ولم يحتمل المعتمد هذه الاهانة فرد عليه وقال: (قرات كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك وسانظر اليك في مراوح الجلود اللمطبه تروح منك ولا تروح عليك)[4]، واصبح بعد ذلك الخطر على الاندلس شديدا، لقلة شجاعتهم وانهيار معنويتهم، اذ ان ثمانين قشتالياً من النصارى هزموا اربعمئه من المريه العرب.

المطلب الثالث: اجتماع علماء قرطبة واهل الاندلس

امام هذا الضياع المفزع الذي وصلت اليه ممالك الاندلس اجتمع العلماء والفقهاء للتشاور فيما يجب عمله لانقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الاراء والافكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المعتمد ان الرأي فيه صواب ونفاذ بصيره، فجد في تقويه جيشه ورمم

(١) دولة المرابطين ص٦٧.

(٢) ابن الكردبوس، (ت ٦٣٤هـ)، تاريخ الاندلس، ص٩١.

(٣) المقري، أحمد بن محمد بن علي التلمساني، (٩٨٦/ ١٠٤١ه،)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، ٤/ ٣٦١.

(٤) الروض المعطار، ص٨٠.

الحصون والقلاع، وقرر ان يطلب النجدة من اخوانه المسلمين المرابطين، وتشاور في الامر مع ابنه الرشيد، فاجابه الرشيد: ياأبت اتدخلُ علينا في اندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا! فقال: اي بني والله لايسمع عني ابدا اني اعدت الاندلس دار كفر، ولا تركتها للنصارى، فتقوم عليّ اللعنة من منابر المسلمين مثل ماقامت على غيري، والله خرز الجمال عندي خير من خرز الخنازير[1]، ولم انتشر راي المعتمد في الاندلس حذره ملوك الطوائف من ذلك وقالوا: (الملك عقيم والسيفان لايجتمعان في غمد واحد)، فاجابهم المعتمد (رعي الجمال خير من رعي الخنازير)[2]

وقال: للذين لاموه على هذا الرأي الاستعانة بيوسف بن تاشفين ياقوم اني في امري على حالين، حالة يقين وحالة شك، ولابد لي من أحدهما، اما حالة الشك فاني ان استندت إلى ابن تاشفين اوالى الاذ فونش ففي الممكن ان يفيا لي ويبقيا عليَّ، ويمكن ان لا يفعلا فهذه حالة شك.

وأما حالة اليقين فاني ان استندت إلى ابن تاشفين فاني ارضي الله ولأن استندت إلى الاذفونش اسخطت الله تعالى فاذاكانت حالة الشك عارضة فلأي شئ ادع مايرضي الله وآتي مايسخطه ! فحينئذ قصر اصحابه في لومه واخيرا تشكلت البعثة من قاضي قرطبة ابن ادهم، وقاضي بطليوس ابن مقانا، وقاضي غرناطة ابن القليعي، ومعهم وزير المعتمد ابو بكر بن زيدون واسند إلى وزيره ابرام العقود. وحملت البعثة معها رسالة مكتوبة من المعتمد بن عباد إلى الامير يوسف مؤرخة سنة ٤٧٩ هـ وهذا نصها (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله واصحابه وسلم تسليما، إلى حضره الامام امير المسلمين ونصر به الدين، فإنا نحن العرب في هذه الاندلس

(١) دولة المرابطين ص٧٠.
(٢) وفيات الاعيان (٧/ ١١٥)

قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت انسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا، فصرنا شعوبا لا قبائل واشتاتاً لا قرابة ولاعشائر، فقل نصرنا، وكثر شامتنا وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين اذفونش اسر المسلمين، واخذ البلاد والقلاع والحصون، وقد ساءت الاحوال، وانقطعت الامال، وانت ايدك الله سيد حمير وملكها الاكبر نزعت بهمتي اليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بكم لتجوز بجهاد وهذا العدو الكافر وتحيون شريعة الاسلام وتدينون على دين محمد ﷺ، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام عليكم ورحمه الله وبركاته، ولاحول ولاقوة الابالله العلي العظيم[1]، وارسلت وفود شعبيه من الشيوخ والعلماء ورسائل تحث الامير على انقاذ الاندلس.

وتأثر المرابطون لمصاب اخوانهم في الدين، واجتمعوا على نصر دينهم واعزاز كلمة التوحيد، وكان وزير يوسف بن تاشفين ومستشاره اندلسي الاصل اسمه عبد الرحمن بن اسبط فنصحه ان يطلب من المعتمد بن عباد الجزيرة الخضراء.

(١) دولة المرابطين ص ٧١

المبحث الثالث
الجواز الى الجزيرة الخضراء في الأندلس ويوم الزلاقة

المطلب الأول: الجزيرة الخضراء:

الجزيرة الخضراء لكي تكون آمنة لعبور الجيش ولحماية خطوط التمويل، اقتنع الامير يوسف برأي وزيره بطلب الجزيرة الخضراء ليجعل فيها اثقال جيشه واجناده ويكون الجواز بيده متى شاء وقال: لوزيره اكتب بذلك إلى المعتمد بن عباد.

وكتب ابن اسبط إلى ابن عباد بذلك. واطلع المعتمد ابنه الرشيد على طلب الامير يوسف بن تاشفين يطلب الجزيرة الخضراء، فقال ياابت الاتنظر ماذا يطلب! فقال المعتمد: يابني هذا قليل في نصرة المسلمين ثم جمع المعتمد القاضي والفقهاء، وكتب عقد هبه الجزيرة الخضراء للامير يوسف وتسليمها إلى المرابطين لتكون رهن بتصرف الامير يوسف بن تاشفين وبعد موافقة المعتمد تجهز يوسف لتلبيه نداء اخوانه في العقيدة راغبا في الاجر والمثوبة من الله بتأدية فريضة الجهاد، وكتب امانا لاهل الاندلس الايتعرض لأحد منهم في بلده وقال: (انا اول منتدب لنصرة هذا الدين لا يتولى الامر الا انا بنفسي)، واعلن النفير العام في قوات المرابطين فاقبلت القوات يتوافدون على قيادتهم الربانية، وجهزت السفن لتحمل هذه القوات، وكأن اول من نفذ امر العبور قائد المرابطين المجاهد دواد بن عائشة وتمركز في الجزيرة الخضراء، وتتابعت كتائب المرابطين وكانت معهم الجمال الكثيرة وقد اثار وجودها دهشت الأندلسيين، لأنهم لم يكونوا يعرفونها من قبل وتمتعوا في قوله تعالى بعد اعوذ بالله من الشيطان الرجيم { أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}، ولما تكامل جيش المرابطين بالساحل، ركب الامير يوسف ومعه قادة من خيرة قادة المرابطين وصلحائهم، ولما ركب واستوى على السفينة رفع يده نحو السماء داعيا مناجيا الله جل في علاه (اللهم ان كنت تعلم ان في جوازنا

هذا اصلاحا للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره، وان كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه)[1].

وسهل الله عبورهم وكان ذلك يوم الخميس بعد الزوال منتصف ربيع الاول ٤٧٩هـ حزيران ١٠٨٦م وصلى الامير يوسف بالجزيرة الخضراء صلاه الظهر وقام اهل الجزيرة بضيافة المرابطين وظهر فرحهم وسرورهم، وبدا الامير يوسف بترميم امور الجزيرة وما تصدع من ابراجها، وشحنها بالأسلحة والاطعمة، وكلف مجموعة من جنوده بحراستها، ثم سار نحو اشبيلية. سارع المعتمد بن عباد مع قادة قومه وشيوخ مدينته وفقهاء بلاده لاستقبال الامير يوسف بن تاشفين، ولما التقى بيوسف تعانقا طويلا بموده وحب واخلاص واخوة في الدين، وتذاكرا انعم الله عليهما وتواصا بالصبر والجهاد في سبيل نصرة المسلمين.

المطلب الثاني: الزلاقة بعد وصول الامير يوسف بن تاشفين اشبيلية:

واصدر المعتمد أوامره لعمال البلاد. لجلب الارزاق لضيافة جيش المرابطين وكان كريما جوادا باذلا للخير.

واستعرض المعتمد الجيش المرابطي فرأى (عسكرا نقيا ومنظرا بهيا)[2]، وواصل الامير سيره نحو اشبيلية حيث كان يستقبل بالترحاب مع جيشه المرابطي على امتداد الطريق، حتى وصل حاضرة المعتمد، فأقام بها ثلاثة ايام للاستراحة، ثم قال للمعتمد: (انما جئت ناويا جهاد العدو حيثما كان توجهت) واثناء مقام الامير يوسف في اشبيلية بعث الامير يوسف إلى ملوك الاندلس يستفزهم للجهاد، فكان اول من لبى الدعوة

(١) الأندلس في عهد المرابطين، ص٧٩.

(٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشيه في ذكر الاخبار المراكشية، اعتنى بنشره السيد بنشير الفورتي، (تونس، ١٣٢٩هـ)، ص٧٩.

عبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة الذي خرج إليه بأمواله ورجاله، واخوه تميم صاحب مالقه.

وارسل ابن صمادح ابنه معز الدولة في مزقه من جيشه، وسار الامير الرباني والقائد الميداني نحو بطليوس، فاستقبلهم صاحبها المتوكل بن الافطس على ثلاث مراحل من المدينة[1].

وظهر منه جود وكرم، وأقام الأمير أيام عده حتى يصل باقي المتطوعين، الا ان اكثرهم لم يصل لمدافعة النصارى، فتابع سيره الجهادي حتى حط رحاله عند سهل الزلاقة وكان يبعد عن بطليوس ثمانية اميال.

ونظم يوسف جيشه، فجعل الأندلسيين جيشا مستقلا بذاته، واسند قيادته إلى المعتمد بن عباد الذي تولى المقدمة، واسند الميمنة إلى المتوكل بن الأفطس، وجعل أهل شرق الأندلس على الميسرة، وباقي أهل الأندلس في الساقة.

اما الجيش المرابطي فتولى داود بن عائشة قيادة فرسانه، واما سيد بن ابي بكر فتولى قيادة الحشم، وبقية المرابطين مع حرس الامير يوسف بن تاشفين إلى جانب قيادته للجيش الاسلامي، وعسكر المرابطون خلف الاندلسيون تفصل بينهم ربوه يقصد التمويه، وكان تعداد الجيش المرابطي والاندلسي اكثر من ٢٤ الف جندي وتضاربت الروايات في ذلك[2].

وكان الملعون الفونسو مشغولا بمحاصرة سرقسطه، ولما وصله الخبر ارتبك وجزع وطلب من المستعين بن هود حاكم سرقسطه أن يدفع له مالا مقابل فك الحصار، فامتنع ابن هود لما علمه من وصول المرابطين، وقرر الايساعد الفونسو بأي مال يستعين به

(١) مجلة جامعة الامام محمد بن سعود، العدد السادس، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ص١٠٤.
(٢) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٥/ ٢٩.

لقتال المسلمين، واضطر الفونسو لرفع الحصار، ورجع مسرعا إلى طليطلة، وأعلن الاستنفار العام، وحل نزاعه مع بعض أحرار النصارى، وأرسل إلى من وراء جبال البرتات، فأتته أفواج عديدة من النصارى تطوعا من اجل الحرب المقدسة كما يسمونها، وجند الفونسو كل من يستطيع حمل السلاح صغيرا أو كبيرا، ونظم جيشه وقسمه إلى قسمين كبيرين اسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غرسيا ورودیك وما لبث غرسيا أن انسحب قبل بدا المعركة اثر خلاف مع الفونسو الذي ابقى روديك في القيادة، واحتفظ بقادة الجيش الثاني، وعين على جانبيه سانثور والكونت يرنجار وتولى هو القلب[1]، وكان جيش الفونسو يعتمد على الفرسان لمجموعه، وكان الفارس يلبس الزرد والدروع التي تغطيه من راسه إلى القدم كأنه حصن من الحديد يتحرك لتزداد شجاعته وجرأته. ولما استعرض جيشه نفخ فيه الشيطان غروره وكبريائه، وقال قوله تدل على كفره وعتوه وفساد معتقده قال: (بهذا الجيش ألقى محمد وال محمد والأندلس والجن والملائكة)[2]. وكان جموع الرهبان والقسيسين امام جيوش الفونسو الملعون يرفعون الانجيل والصليب لاذكاء الحماس الديني في نفوس الجنود الذين بلغ عددهم اكثر من ستين الفا.[3]

وخرج الفونسو الملعون بجيشه نحو بطليوس، وكتب إلى المعتمد بن عباد كتابا جاء فيه: (ان صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده وخاض البحار، وانا اكفيه العناء فيما

(١) مؤلف مجهول، الحلل الموشيه، ص٣٤.

(٢) يوسف اشباخ، الأندلس في عهد المرابطين، ص٨٣.

(٣) ابن الاثير، عز الدين بن الحسن علي الكارم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، الكامل في التاريخ، دار الصادر، (بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، ٦/ ٣٠٣.

بغى ولا اكفيكم تعبا، وامضي اليكم والقاكم في بلادكم رفقا بكم وتوفيرا عليكم[1]، وقصد الفونسو بذلك ان تكون المعركة خارج بلاده فاذا انهزم ولحقوا به يكون مسيرهم في ارضهم، ولابد من الاستعداد لاكتساح بلاده، وبذلك ينجو من التدمير، واذا انتصر حدث ذلك في ارض اعدائه.

وصل الفونسو ارض بطحاء الزلاقة، وخيم على بعد ثلاثة اميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون. لقد انزعج الملعون الفونسو من مجئ المرابطين انزعاجاً كبيراً حيث شعر بعوده الروح المعنوية إلى أهالي الأندلس الذين كان يسومهم سوء العذاب يقتل رجالهم ويسبي نسائهم ويأخذ الجزية منهم، ويحتقرهم ويزدر بهم ويتلاعب بمصيرهم وينتظر الفرصة لاستئصالهم من الاندلس، لتعم النصرانية في سائر البلاد، ويرفع الصليب على اعناق العباد، واذ بالمرابطين المجاهدين يربكون مخططاته، ويبددون احلامه. لذلك اراد الفونسو ان يوجه ضربة قاصمه لمن كان السبب في استدعاء المرابطين وخصوصا للفارس المغوار المعتمد بن عباد وقرينه المتوكل بن الأفطس.

وكان يرى أن نصره يعتمد على تكبيل القوة الداخلية في الأندلس بالهزائم المتتابعة والمتلاحقة، أما المرابطون بعد ذلك سيرجعون إلى وطنهم الأصلي المغرب وبالقضاء على الاندلس سيسهل القضاء على المرابطين بسب جهلهم بالطبيعة الجغرافية للبلاد ومما ساعد الفونس على ان يعيش في تلك الاحلام فتور معظم اهل الاندلس بسب ترفهم ونعيمهم وجبنهم وحبهم للحياة وهروبهم من الجهاد والشهادة كما ان اسباب الهزيمة تحرت في ذلك المجتمع المتهالك .أما المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس

(١) الصنهاجي، الروض المعطار، ص٨٨.

فتحركت فيه النخوة العربية الإسلامية وامتشقوا الحسام، فمن ظفر عاش سعيدا ومن مات كان شهيدا.

وأما المرابطون الذين تربوا على تعاليم الإسلام وأصول أهل السنة والجماعة فقد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بعد تربية عميقة، وتكوين فريد وإيمان راسخ، ساهم علماء وفقهاء وشيوخ في ذلك. وعلى رأسهم المؤسس الأول لهذه الجماعة الجهادية عبد الله ابن ياسين، فقد مروا بمراحل صقلتهم وحروب زكتهم، واصبحوا متشوقين إلى الاستشهاد معتمدين على رب العباد، آخذين باسباب النصر المعنوية والمادية.

وكان رأي المرابطين ان المعركة في الاندلس مصيرية للامة الاسلامية، وبذلك لايمكن الاعتماد على شعب مهزوم وقع في اسر المعاصي والذنوب كما ان انتصارهم في الاندلس يرعب اعداءهم وخصومهم في المغرب ويتم بنصرهم انقاذ الاسلام والحضارة في ذلك البلد البعيد عن العالم الاسلامي. كان الفونسو يقود حربا صليبية شرسة ضد المسلمين[1].

ان الجانب المادي عند النصارى كان اعلى بكثير مما عند المرابطين، ولكن الجانب المعنوي عند المرابطين لا حدود له. وارسل البطل المغوار يوسف بن تاشفين إلى الفونسو كتابا يعرض عليه الدخول في الاسلام أو دفع الجزية أو الحرب ومما جاء في كتاب الامير: (بلغنا يا اذ فونش انك نحوت الاجتماع بنا، وتمنيت ان تكون لك فلك ان تعبر البحر عليها الينا، فقد جزناه اليك، وجمع الله في هذه العرصه بيننا وبينك، وترى عاقبة ادعائك[2]، {وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} (الرعد/ ١٤).

ولما قرأ الفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: ((أبمثل هذه المخاطبة

(١) يوسف اشباخ، الاندلس في عهد المرابطين، ص٨٦.

(٢) ابن خلكان، وفيات الاعيان ٧/ ١١٦.

يخاطبي وانا وابي نأخذ الجزيئة من أهل ملته منذ ثمانين سنة)) وقال الرسول للامير يوسف (قل للامير لاتتعب نفسك انا اصل اليك)[1]، واننا سنلتقي في ساحة المعركة، ومعنى ذلك ان الفونسو اختار الحرب، وحاول الفونس حامي حمى النصرانية ان يخدع المسلمين، فكتب إلى الامير يوسف بن تاشفين في تحديد يوم المعركة: (ان بعد غد الجمعة لانحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم، والسبت عيد اليهود، وهم كثير عندنا، وبعده يوم الاحد وهو عيدنا، فنحترم هذه الاعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين) فكان جواب الامير يوسف: (اتركوا اللعين وما احب)[2].

فاعترض المعتمد بن عباد وقال للامير يوسف: (انها حيلة منه وخديعة انما يريد غدرنا فلا تطمئن له، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار)[3].

واستعد المسلمون لرصد تحركات النصارى، وكان حدس المعتمد صائبا لانه اعرف بخبثهم من الامير يوسف، لذلك رصدوا تحرك العدو، وانقض العدو الذي يقوده رودويك بمنتهى العنف على معسكر المسلمين من الاندلس، فتصدى لهم فرسان المرابطين الذين كان يقودهم داود بن عائشة، وصمد المرابطون اما هجمات النصارى، مما اضطر العدو النصراني من الارتداد إلى خط الدفاع الثاني.

وظهرت من داود بن عائشة والمرابطين معه كفاءة قتالية عالية لم يعرف لها مثيل، واستشهد من المرابطين شهداء، واحتدم الصراع وزحف الفونسوببقيه جيشه، وكان مع ذلك الزحف صياح هائل مما افزع قلوب الاندلسيين قبل خوضهم المعركة، ولاذوا

(١) الصنهاجي، الروض المعطار، ص٩٤.
(٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشيه، ص٣٦.
(٣) سلامة محمد سلمان الهرفي، دولة المرابطين، دار الندوة (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص٨٩.

بالفرار ووجدوا انفسهم امام اسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد الا فارس الاندلس المغوار وقومه (المعتمد بن عباد واهل اشبيلية)، حيث ابلى بلاءا عظيما وعقرت تحته ثلاثة من الخيول واصيب بجروح عميقة، واستمرت المعركة الرهيبة غمطت الالسنة وخطبت السيوف على منابر الرقاب واقدمت الرماح على الخطط الصعاب، فلا ترى الرؤوس تنثر ودماء تهدر، وحميّ الوطيس وصمدَ كل من المعتمد بن عباد وداود بن عائشة، وصبر المسلمون في هذه المعركة صبرا عظيما سجل في صفحات المجد والعزة والكرامة في تاريخنا المجيد.

وبدأت قوة المسلمين تضعف وتتقهقر امام ضربات النصارى الحاقدة، وايقن الفونسوببلوغ النصر وهزيمة المسلمين، ولكن لم يستغرق الفونسوباحلامه طويلا، حيث وثب جيش المرابطون إلى ميدان المعركة، بقيادة الامير سيد بن ابي بكر على رأس الحشم لمسانده القوات الاسلامية، حيث تقوت بذلك معنوياتهم في معركة حالت إلى هزيمتهم، وبعدها زحف البطل المغوار يوسف بحرسه المرابطي، وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه واحرقها وأباد حراسها، ولم يهرب منهم الاقليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترج لها الارض ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء، مما بث الرعب والخوف والهلع في نفوس الاعداء وهلعت قلوبهم[1].

وذهل الفونسو عندما رأى بعض حرس معسكره فارين، واتته الاخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه، وانه خسر حوالي عشرة آلاف قتيل.

ووجد الفونسو نفسه محاصرا لذلك اضطر ان يقاتل متقهقرا نحو معسكره المحروق،

(١) مؤلف مجهول، الحلل الموشيه، ص٤٢.

ومع ذلك فان الامير يوسف لم يترك له الفرصة لالتقات أنفاسه، وقاتل الفونسوعند ذلك قتال المستميت وكان الامير يوسف يبث الحماس في نفوس المسلمين قائلا: (يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة) وكان رحمه الله يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين وكانت العناية الإلهية تحميه[1].

وكان فقهاء المسلمين وصالحيهم يشجعون الجنود ويعضوهم على مصابرة أعداء الله، وفي هذا الجو الرهيب من القتال الذي دام بضع ساعات وسقط فيه ألاف القتلى، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى القتال، فترجل منهم اربعة الاف كانوا مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ونزاريق الزان[2].

اندفعوا إلى المعركة، اندفاع الاسود فحطموا مقاومة النصرانية، وانكسرت شوكتهم، وانقض احد فرسان المسلمين على عدو الله الفونسو وطعنه في فخذه، ولاذ النصارى بالفرار، وتمنى الفونسو الموت على العيش ولجأ مع خمسمئة فارس إلى تل قريب ينتظر الظلام ينجون من سيوف المسلمين، وفقد الفونسو في معركة الزلاقة القسم الاعظم من جيشه.

وأمر الامير يوسف بن تاشفين بضم رؤوس القتلى من النصارى إلى بعضها، فعمل منها المسلمون مآذن يؤذنون عليها استشهد في هذه المعركة الخالدة معركة الزلاقة جماعة من العلماء والفقهاء قلما يجود الزمان بمثلهم، منهم قاضي مراكش عبد الملك المحمودي، والفقيه الناسك ابو العباس احمد بن رميلة القرطبي، اما المغانم والاسلاب التي تركها النصارى فآثر الامير يوسف بها اهل الاندلس، ليعرفهم ان هدفه هو الجهاد

(١) يوسف اشباخ، الاندلس في عهد المرابطين، ص٨٥.
(٢) الصنهاجي، الروض المعطار ص٩٢.

في سبيل الله ونصرة الاسلام لا من اجل الدنيا الفانية[١].

وولى الفونسو مطعونا في إحدى ركبتيه طعنه افقدته احدى ساقيه مع ٥٠٠ فارس من ثمانين ومئتي الف راجل، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل، وتسلسل الفونسو تحت الظلام فارا لا يهدي ولا ينام، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق اربعمئة، فلم يدخل طليطلة الا مئه فارس والحمد لله على ذلك كثيرا.

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩هـ المصادف ٢٣ تشرين الاول ١٠٨٦م العجمي[٢].

وأرسل الأمير يوسف بن تاشفين اخبار هذا النصر المبين إلى المغرب العربي وكذلك أرسل المعتمد بن عباد إلى ابنه الرشيد في اشبيلية يزف اليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الانباء على احر من الجمر، وكان نص الرسالة التي لا تتعدى السطرين، هذا نصها: (اعلم انه التفّت جموع المسلمين بالطاغية الفونسو اللعين ففتح الله للمسلمين وهزم على ايديهم المشركين والحمد لله رب العالمين فاعلم بذلك من قبل اخواننا المسلمين والسلام)، واصبح يوم الزلاقة عند المغاربة والاندلسيين مثل يوم القادسية واليرموك: (يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقتها، وعادت ظلمة الحق إلى اشراقها، ثم لاسباب عجل امير المسلمين بالعودة إلى المغرب مما فوَّت الافادة من هذا النصر المؤزَّر في تتبع الجيش القشتالي ومهاجمته في عقر داره أو على الاقل استعادة طليطلة)[٣].

---

(١) الصنهاجي، الروض المعطار ص٩٥.

(٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشيه، ص٤٦.

(٣) الحجي، عبد الرحمن علي، التاريخ الاندلسي، ص٤٤٠.

الخاتمـة

إن زعماء المرابطين في تاريخهم المجيد حرصوا على تربية شعبهم المجاهد على صفات المجاهدين، سواء على مستوى الافراد أو القادة أو الجيش أو الشعب، وكان لتربية الأمير الأول عبد الله بن ياسين في رباطه أثر كبير لازمهم على طول حياتهم يقول سيد قطب رحمه الله (إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، فأما الكبير الذي يحمل العبء فماله وللنوم وماله وللراحة، وماله للفراش الدافئ، والعيش الهادئ، والمتاع المريح، ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر فقال لخديجة رضي الله عنها: وهي تدعوه أن يطمئن وينام (مضى عهد النوم ياخديجة) أجل مضى عهد النوم منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد[1]، قبل يوم الزلاقة، رأى الفونسو السادس في منامه، كإنما هناك تجمع كبير للفيلة والطبالين فإنهزم كلاهم، فقال لعلمائه ومفسريه ما تفسر ذلك فقالوا أضغاث احلام كأصحاب عزيز مصر في قصة الصديق يوسف عليه السلام وعجزوا عن تفسير ذلك، فأرسلوا الى أحد علماء المسلمين، فقال لهم: تأويل ذلك من القران الكريم من سورة الفيل وسورة المدثر، والذي يحصل لكم في هذه المعركة مع المسلمين مثل ما حصل لأصحاب الفيل بقيادة إبرهة الأشرم وجيشه، هذا في الدنيا، وأما في الأخرة فهو أشد وأخزى فهي الطبول كما في قوله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ* فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} (المدثر/ ٨-١٠) فتجاهل الفونسو هذا التأويل وإستهزأ به فحصل يوم الزلاقة المجيد الذي هو يوم من أيام الله جل في علاه ونقول هناك رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وما حصل لهم النصر والتمكين إلا بصدقهم في جنديتهم وعبوديتهم

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٤٤)

لرب العالمين {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} ونصروا الله فنصرهم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} وكان لهم أُسوة حسنة بسيدنا الرسول الأكرم ﷺ عندماخاطبه سبحانه وتعالى من فوق السبع الطباق بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} (الاحزاب/ ١) أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لم يطع الكافرين بل حاربهم وكذلك موقفه مع ملوك الطوائف المنافقين الذين والوا الكافرين وكان مطيعاً لشرع رب العالمين بما أفتى به إجماع علماء المسلمين من المغاربة والشرقيين بتوحيد المسلمين من الأندلسيين والمغاربة تحت قيادة المرابطين.

إن الأمير يوسف بن تاشفين أرسى مقومات النصر والتمكين التي تجسدت في دولة المرابطين، حيث كان حريصاً على معرفة قوة العدو وإمكاناته والتوجيه المعنوي والتعميه على العدو وإلتحام القيادة مع الشعب ومتانة العقيدة ووضوحها وعدم القتال لدنيا ولا لمطامع شخصية، أما إذا كان الهدف إقامة دولة الإسلام وتطبيق شرع الله في هذه الدنيا فذاك الهدف السامي بعينه ومن أهداف الجهاد في سبيل الله كما قال ربيعي بن عام لرستم الفرس (الله إبتعثنا لنخرج من يشاء من عباده من عبادة العباد الى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا الى سعتها والآخرة ومن جودَ الأديان الى عدل الإسلام).

كل هذه المقومات الحقيقية من خلقية وغيرها مهدت طريق النصر والتمكين للمرابطين بقيادة إبن تاشفين. إن من أخطر ما تمر به الدول والحركات هو عدم توريث قدرتها وأفكارها ومنهجها للجيل الذي يأتي بعدها، وإن الأستهانة بالخصوم تؤدي الى إنهزام المستهزئ، وإنتصار المستهزأبه، فمثلاً عندما إستلم الأمير علي بن يوسف قيادة دولة المرابطين بعد وفاة أبيه رحمه الله، وعندما تفرغ للزهد والعبادة الدينية وبالتالي تسلمه أُمور الملك في آخر أيامه للأمراء أوقعه في خطأ عظيم كلف الدولة متاعب

عظيمة، ومن خلال الأخطاء التي وقع فيها عدم أخذه بنصيحة وزيره الفقيه مالك بن وهب الأشبيلي الذي أشار عليه بإقصاء إبن تومرت الكذاب زعيم الموحدين مما أتاح له الفرص في نخر أُسس دولة المرابطين وإسقاطها وقامت على أنقاضها دولة ما يسمى بالموحدين وفي الحقيقة هم ليسوا من الذين يوحدون الله جل في علاه بل فيهم شرك وبدع تخرجهم من العقيدة الصحيحة.

إن من أعظم أسباب سقوط الدول الذنوب والمعاصي والترف والإسراف وإرتكاب الكبائر والمظالم. لقد أصبح أُمراء دولة المرابطين في نهاية المطاف كذلك لملوك الطوائف من قبلهم (إياكم والترف فإن الترف يزل النعم) أو كما قال ﷺ وفي الختام نقول إن للأفراد آجالاً محدودة، وكذلك الأمم حيث إذا جاء أجلها لا تتاخر.

والحمد لله رب العالمين ولا يحمد على مكره سواه.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. إبن الأثير، لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، ١٩٨٩م.

٢. الحجي، عبد الرحمن علي، تاريخ الأندلسيين، دار القلم، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٣. إبن خلدون، عبد الرحمن بن محمد أبو زيد (ت ٨٠٨هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال، بيروت- لبنان.

٤. إبن خلكان، شمس الدين أبو العباس، وفيات الأعيان، دار صادر بيروت، تحقيق د. إحسان عباس.

٥. الذهبي، الإمام سير إعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

٦. الزركلي، خير الدين، الإعلام، دار العلم للملايين، بيروت.

٧. سلامة محمد سلمان الهرفي، دولة المرابطين، دار الندوة، (١٤٥هـ/ ١٩٨٥م).

٨. سيد قطب، في ظلال القرآن.

٩. الصلابي، علي محمد علي، تاريخ دولة المرابطين والموحدين في الشمال الافريقي، ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، دار ابن كثير، دمشق- بيروت.

١٠. الصنهاجي، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت ٧١٠هـ)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: ليفي بروفنسال، (القاهرة، ١٩٣٧م).

١١. العمر، د.ناصر، سقوط الأندلس، مؤسسة المؤتمر، دار الوطن، ط١، ١٤١٢هـ.

١٢. محمود، حسن أحمد، قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٣. مؤلف مجهول، الحلل الموشيه في ذكر اخبار المراكشية، اعتنى بنشره السيد بشير الفورتي، تونس ١٣٢٩هـ.

١٤. المقري، أبو بكر، أحمد بن محمد بن علي التلمساني، (ت ٩٨٦هـ/ ١٠٤١م)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، الطبعة الخامسة.

١٥. يونس اشباخ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٨م.